محدودية المرجعية التراثية في تحقيق العقلانية في فكر عبد الله العروي

معروف حنان

طالبة دكتوراه، قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف–.

مقدمة:

إنّ الإصرار اليوم على طرح إشكالية التأخر في المجتمع العربي، دليل على اهتمام المفكرين في الساحة الفكرية العربية بعمق المشكلة، وتداعياتها على جميع الأصعدة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالتأخر التاريخي هو سمة بارزة في المجتمع العربي وما نعانيه اليوم هو تأخر في الذهنية، لذلك غاص العالم العربي في التبعية والتقليد والتمسك بالماضي، فالمشكل الحقيقي هو عدم وجود ايديولوجيا تستوفي شروط الاستيعاب لمقومات الحداثة الغربية للنهوض بالعالم العربي.فشكّل التراث العربي الإسلامي نقطة البداية للاشتغال عليه، فتعددت القراءات النقدية لهذا التراث، ومن بينها قراءة المفكر المغربي عبد الله العروي الذي تعامل مع التراث من خلال الصراع الإيديولوجي بين مختلف مرجعياته، وبما أنّ العقل يعتبر المتهم الأول في استمرار أزمة البلاد العربية والإسلامية، أدى هذا إلى اعتكاف العروي في عالم العقل من خلال تأليفه كتاب " مفهوم العقل "، إيمانا منه أنّ إصلاح العقل هو سبيل ولوج عالم الحداثة، لذلك اعتمد العروي في إطار مشروعه التاريخاني الوقوف على المرجعية السلفية مجسدة في فكر "محمد عبده"، كما لم تسلم الجهود الفكرية الخلدونية من عملية النقد على الرغم من المكانة البارزة التي يحتلها فكر " ابن خلدون" في الفكر العربي والإسلامي، **فكيف تعامل العروي مع هذه المرجعيات التراثية في ظل تسلحه بالنقد والبحث التاريخي؟ وكيف يمكن تحقيق العقلانية في ظل السجال الفكري بين هذه المرجعيات؟.**

1–محمد عبده ممثل المرجعية السلفية:

لقد ساهمت القراءات المتعددة للتراث العربي الإسلامي في نشوء خطابات وتيارات ذات مرجعيات إصلاحية مختلفة، وعلى رأسها المرجعية السلفية التي جسدّت في تفكير عبد الله العروي واحدة من مفارقات العقل الإسلامي، وهي مفارقة الشيخ " محمد عبده"" ذات النزعة الدينية، مثلّت التيار الأصولي الذي يتعامل مع قضايا المجتمع العربي المعاصر من خلال العودة إلى الفكر السلفي بهدف الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الواقع العربي الإسلامي اليوم.

ففي نظر العروي في زمننا المعاصر تغيرت النظرة إلى الفكر الإصلاحي لمحمد عبده، حيث " لم يعد ذلك العالم الصالح المصلح الذي يرجع

إليه الفضل في بث روح التطور والتحرر من أغلال الجمود في جلّ البلاد العربية وفي قسم كبير من العالم الإسلامي، وإنّما أصبح يتهم أنه زجّ بالمعرفة الإصلاحية في متاهات أدّت بها إلى أبواب موصدة"[1]، لذلك حاول العروي في كتابه (مفهوم العقل) تسليط الضوء على فكر محمد عبده السلفي في إطار اهتمامه بالإصلاح السياسي والثقافي ومحاولة تجاوز التأخر التاريخي.

وبناءا على ذلك قام العروي بفحص وتشخيص الخلفية الفكرية للشيخ محمد عبده في تعامله مع الفكر الغربي ومنطقه الحداثي، فتوصل إلى أن الذهنية الطاغية على فكره هي الذهنية الكلامية، وتتجسد في تحليلاته " المتعلقة بالنفس البشرية وحاجتها إلى الطمأنينة فيما يعود إلى الدار الآخرة، استدل على ضرورة الرسالة بدور الدين في تمتين الروابط الاجتماعية وضمان العدل والتوازن الاجتماعي"[2]، وما يثبت أيضا تفكيره الكلامي هي " نظرته التطورية إلى الأديان، تلك النظرة التيقول عنها تلميذه " رشيد رضا" أنه لم يسبق إليها، إن الإنسانية كالفرد تمر بنفس الأطوار، الطفولة ثم الصبا ثم الكهولة، ولكل طور دين يوافقه"[3]، وفي هذا يظهر وفاء " عبده" لعلم الكلام واعتماده على العقل النصي، وبذلك " لم يتمكن من إدراك محدودية المرجعية التي استند إليها، فقد كان مطلعا فعلا على كثير من معطيات الثقافة المعاصرة لكنه لم يستوعب القطيعة التي بلورتها الحداثة مع الثقافات الوسيطية والثقافات القديمة، فأنتج نصوصا حاول فيها إحياء جوانب من منظومة التراث كوسيلة لمواجهة التحديات الجديدة المعاصرة له"[4].

ويضيف عبد الله العروي في إطار نقده للمرجعية السلفية أن الشيخ محمد عبده يعالج إشكالية الاختلاف بين الشرق والغرب في مجالها التقليدي المحدود، أي كصراع بين النصرانية والإسلام، لذلك كانت عبارته " الإسلام دين العقل والمدنية التي تقف خلف سجالاته مع فرح أنطون وهانوتو تشخص أبعاد هذه المفارقة"[5]، لكن يجد الداعية السلفي نفسه هنا في نظر العروي مضطرا إلى
الإجابة على سؤال غاية في الأهمية، وهو " إذا كان العقل حليف الإسلام والتعصب لزيم النصرانية، ما بال هذه تزدهر وذلك يتدهور؟"[6]، هنا يجيب محمد عبده أن سبب ذلك تغير أحوال الناس عبر الزمان فليس دائما ما يقرّه الدين يعكسه الواقع، فما هو واضح اليوم في المجتمعات العربية الإسلامية التنكر لدعوة الدين الإسلامي، ولذلك يجب التمييز بين إسلامين: " إسلام متعال أصيل غير ملطخ بعوارض الزمان، وإسلام خاضع لأهواء المسلمين محرف مشوه على مدى القرون والأجيال"[7].

ففكر محمد عبده في نظر العروي يجسد الإشكالات الراهنة التي تطرحها القضايا المتعلقة بالظاهرة التراثية، لأن " الدفاع عن معقولية التراث مقابل مادية الحضارة الغربية يمثل انكفاءا وتراجعا يعيدنا إلى عتبة محمد عبده ومشروعه في الإصلاح السياسي والعقائدي"[8]، فمحاولة إحياءالتراث وانبعاثه من جديد في الزمن الحاضر أو محاولة التوفيق بين الماضي والمكتسبات المعاصرة هو استمرار للتأخر التاريخي وذوبان في التقليد والاتباع، بل هو في نظر العروي فكر لاتاريخي، لأن " المثقف السلفي – سلفية النصوص أو سلفية الأصول- يسعى على الدوام إلى الحفاظ على الثوابت الأصلية للأمة الإسلامية، وهو الأمر الذي يجعله فيبعض الأحيان يقع ضمن شرك التراجع والقفز فوق الواقع والتاريخ"[9]، وبذلك ساهمت المرجعية السلفية في عرقلة تحقيق العقلانية التاريخية، وتوسيع دائرة استمرار الفكر التقليدي في الفكر العربي المعاصر.

2- محدودية الجهود الفكرية الخلدونية:

يواصل عبد الله العروي قراءته للتراث العربي الإسلامي، فبعد أن تطرق إلى حدود العقل النظري عند محمد عبده، يقوم بنقد العقل العملي عند ابن خلدون، وبالتالي انتقل إلى مجال العلوم العمرانية، لتبيان محدودية العقل الإسلامي في بلوغ العقلانية.

اعتبر العروي أن ابن خلدون لم يحدد مفهوم العقل في كتاب (المقدمة) بطريقة واضحة، لأنه " يحد العقل كثيرا ولا يعرفه بكيفية تقريرية إلا قليلا، لا يقول بكل بساطة العقل هو كذا وكذا ... بل يبحث طويلا فيما هو غير العقل إما الحصر وإما الكشف"[10]، وركز العروي على ماهية العقل عند ابن خلدون من خلال كتاب المقدمة وليس كتب أخرى، ككتاب (شفاء السائل في تحرير المسائل) مثلا، وذلك لارتباط مستوى العقل بالنظر العمراني، وهو الأمر المبرهن عليه في كتاب (المقدمة) بطريقة محكمة ودقيقة.

يدافع ابن خلدون عن العقل التجريبي وهذا ما يدل على أصالته، حيث رأى " أن العقل التجريبي يرتبط دائما بهدف عملي، وهذا ما سيدفعه إلى نقد العقل التجريبي"[11]، فمن خلال العقل التجريبي تكشف النفس البشرية علوما ضرورية لتحسين أحوال المعيشة، فالعقل عند ابن خلدون هو وسيلة لتحسين أحوال العمران، لذلك اعتبر العروي أن كلام ابن خلدون عن العقل الإنساني هو في إطار خدمة التاريخ والسياسة، " وبما أن موضوع ابن خلدون هو العمران، بحيث لا يبحث في أسس التاريخ إلا للتحقق عن الأخبار وعن الحوادث، ولا يبحث في الأخبار إلا ليقرر قواعد السياسة النافعة لحفظ العمران، فإن العقل الذي يهمّه بالدرجة الأولى هو ذلك العقل الناتج عن التعرف المتزايد من الوسائط، أي على طريق الطبيعة وهي تمر من حالة إلى أخرى، من طور إلى آخر يعني العقل التجريبي"[12]، فهذا الأخير عند ابن خلدون هو بمثابة النقطة الجوهرية في فكره.

وعلى الرغم من دفاع ابن خلدون عن العقل التجريبي، غير أنه بقي وفيا للعلوم الأخلاقية والدينية، كما " بقي وفيا لمنطق الفقه معتبرا الشرع بالأساس قانونا تنظيميا وتهذيبيا للمجتمع مختلط أمّي وكتابي في آن، كما كان المجتمع الإسلامي في جل أطواره"[13]، ففي مرحلة المجتمع البدوي كان هناك تطبيق للشرع، ولكن مع تطور العمران تغير وضع الشرع في المجتمع تغير حاله، في نظر عبد الله العروي " لم يكن ابن خلدون يعرف دقائقها بالتجربة، وإنما كان يقرأ عنها ويتوهمها فيبعض وجهات الشرق الإسلامي"[14].

وهنا تظهر محدودية العقل التراثي الخلدوني حيث اقتصرت وظيفة العقل الإسلامي على التأويل وتقديم مجموعة من القراءات للوضع العربي والإسلامي، لا تعاصر راهن الأمة، ومن هنا لم يخرج العقل الخلدوني من منطق المتكلمين لأن " العقل عند ابن خلدون وسائر المفكرين المسلمين، إذ يحاصر الوهم وينفيه عن مجال النشاط البشري الجدي، يحد ذاته، يمنع العقل ذاته بمحاصرة الوهم عن الزيادة في التعقل، فلا تتعدى العبارة اللفظ ولا يتعدى الرمز الحرف"[15].

فالعروي عمل على نقد المرجعية التراثية لمحمد عبده التي لا تزال تؤثر في نظره في الفكر العربي المعاصر، بالإضافة إلى إبراز محدودية المرجعية الخلدونية في تحقيق أسس العقلانية، على الرغم من نقطة التغيير الكبرى التي أحدثها الفكر الخلدوني في الفكر الإسلامي، شكلت هاتين المرجعيتين البعد التام عن تحقيق العقلانية، **فما هي الاستراتيجية التي يقدمها العروي لتجاوز محدودية المرجعيات التراثية وبلوغ العقلانية، لمسايرة الركب الحضاري واستيعاب مكتسبات الحداثة الغربية؟**.

3- ضرورة القطيعة مع المرجعيات التراثية:

إن الهدف من تأليف كتاب "مفهوم العقل" هو البحث عن عقل أكثر اتساقا مع نفسه ومع الواقع، وهنا كانت الحاجة إلى إحداث قطيعة منهجية وابستمولوجية مع التراث، " وهذا لا يكون إلا بالقفز فوق حاجز معرفي حاجز تراكم المعلومات التقليدية، لا يفيد فيها أبدا النقد الجزئي بل ما يفيد هو طي الصفحة"[16]، فلابدّ من امتلاك عقل يدرك أهمية تجاوز العقل التراثي الذي لم يعد يستوعب متطلبات الحداثة، " فبالتاريخ يتكون المعقول وبالمعقول ينتظم الواقع"[17]، وهنا تبرز أهمية التسلح بالتاريخ لتحقيق العقلانية، ولدخول عالم الحداثة لابدّ من تحديث العقل العربي الإسلامي، " وكأن العقل غاية ومبدأ الحداثة في الوقت نفسه، لأنه لا يمكن تجاوز عوائق العقل إلا بالعقل، بهذا النحو تكون القطيعة بالعقل ضد العقل"[18].

فالعقل هو سبب أزمة التأخر العربي وفي الوقت ذاته هو الحل للخروج من الأزمة التي مسّت مختلف المستويات الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية...، حيث " لا يستطيع أحد أن يدّعي أنّه يدرس التراث دراسة علمية موضوعية، إذا بقي أعني الدارس في مستوى ذلك التراث، لابدّ له قبل كل شيء أن يعي ضرورية القطيعة وأن يقدم عليها، كم من باحث يتكلم عليها كموضوع وهو نفسه غير قادر على تحقيقها؟"[19].

وبالتالي تحقيق القطيعة ليس بالأمر السهل، لأن أي أمة لا يمكن أن تتخلى عن تراثها، ونحن كمجتمع عربي مجتمع تراثي بالدرجة الأولى، لا نزال نعيش على ما قدمه الأجداد،" وهكذا يظهر أن القطيعة هي لحظة عبور بين عالمين متقابلين، لكنها ليست كالبرزخ الصوفي الذي يمد عينيه على السواء إلى هذين العالمين، بل إن القطيعة تنأى بنفسهاعن وضع البينية لتتخذ قرارا ملزما بالتخلي الجازم عن العقل الذي أدّى إلى المفارقة، وما تولده من معاناة وإحباط وهو العقل الموروث ، العقل المطلق والانتقال إلى تبني عقل تاريخاني نسبي وتناسبي هو العقل الحداثي"[20]، وبالتالي النظر إلى العقل التراثي من خارج التراث ليصل إلى مستوى العقل الحداثي.

ومع ذلك العروي عندما ينتقد المرجعيات التراثية وعلى رأسها المرجعية السلفية عند محمد عبده، وينادي بالقطيعة الابستمولوجية والمنهجية مع التراث، لا يعني أنه يقصي التراث من الذاكرة العربية الإسلامية، ولا يلغيه بشكل عبثي وعشوائي، " بل إن الترقي إلى فكرة الانقطاع عن الماضي لا يتم إلا بدراسة التراث دراسة علمية ثم بعد ذلك تجاوزه نحو عالم الحداثة، عالم القيم الكونية"[21]، وهذا يثبت الرصيد الفكري للعروي ومدى معرفته بالثقافة العربية الإسلامية، ومدى انشغاله بالبحث عن عوائق التحديث التي حالت دون تقدم الأمة الإسلامية.

كما أنّ الحديث عن تحقيق القطيعة مع المرجعيات التراثية هو تحويل العقل إلى عقلانية ، أي أن يتجسد العقل في فعل سلوكي، لأن ما دفع العروي إلى تأليف كتاب "مفهوم العقل" أيضا هو ابتعاد العقل العربي الإسلامي عن تحقيق ما يعتقد ويقول إلى فعل وإنجاز عقلاني، لذلك ابتعدت العقلانية عن الواقع، وهو ما شغل تفكير العروي واعتبر أن الحل في أن " يتأصل عقل الفعل إلى نقض عقل الاسم، ولا يكون الإصلاح إصلاحا إنشائيا إلاّ في الإطار الأول وخارج الإطار الثاني"[22].

فالسبيل إلى تحقيق قفزة حداثية وتجسيد العقلانية هو تحقيق فعل الحسم مع العقل التراثي، لأن أحد أهم أسباب تأخرنا هو أننا " لم نحسم في أي من المشكلات المطروحة، لأن الحسم يتطلب الاعتياد والتمرن على منطق الفعل، في حين أننا نطبق على الفعل باستمرار منطق الاسم، لأننا نؤمن ونقول منذ قرون أن الموروث من ثقافتنا مبني على العقل إطلاقا، هذا التعميم والإطلاق في المفهوم يقلب عند التطبيق العقل إلى لا عقل"[23]، وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية غياب العقلانية والوهم بأننا نمارسها، في حين أننا لا نزال نجسّد المفارقة ونعيش بها ومن خلالها، في حين أنه " لا يكون العقل عقلانية لا يجسد في السلوك، إلا إذا انطلقنا من الفعل وخضعنا لمنطقه، ثم بعد عملية تجريد وتوضيح وتعقيل أبدلنا المنطق الموروث منطق القول والكون منطق العقل بإطلاق"[24]. من هنا نلاحظ الثنائية الموجودة في تفكير العروي،

التي ربطت الإصلاح وتحقيق العقلانية من خلال تجاوز العقل التراثي، والتعامل معه بعقل تاريخاني قادر على تحقيق القطيعة والوعي بها والانتقال من عقل الاسم إلى عقل الفعل، من أجل بلوغ عالم الحداثة ومسايرة الركب الحضاري.

وهنا اختار العروي التاريخانية كفلسفة ومنهج وإيديولوجيا، على اعتبار أن ما نعانيه اليوم في مجتمعاتنا العربية المتخلفة هو نقص إيديولوجي لمواجهة الفكر التقليدي الماضوي، لذلك فالنزعة التاريخانية في فكر العروي ترتكز على التاريخ، فالتاريخانية "تدلنا على نسبة التأخر وتدفعنا إلى التطلع المتفائل نحو التقدم، وهي في الآن نفسه تنتج من ممارسة التأثير الإيجابي في حاضرنا"[25]، ومن هنا كان اختياره واضحا في تبني الماركسية التاريخانية فهي بالنسبة إليه " ذلك النظام المنشود الذي يزودنا بمنطق العالم الحديث، لأننا لم نعش أطوار العالم الحديث المتتابعة، ولم نستوعب بنيته الكاملة (أي المنطق الديمقراطي الليبرالي)"[26].

وهنا كانت الحاجة إلى النقد الايديولوجي فهذه الماركسية وحدها في نظر العروي، قادرة على استيعاب الفهم التاريخي لنظرية التخلف" ذلك عندما نعتنق بأن الماركسية هي العقلانية التامة والدنياوية التامة والتاريخانية التامة"[27]، فلا سبيل للفهم التاريخي إلا من خلال الدفاع عن أسس المعاصرة الغربية وضرورة الوعي التاريخي. فالقطيعة مع التراث وتبني الماركسية التاريخانية هما سبيل تقويض الفكر التقليدي، وإيقاف امتداداته إلى مختلف مجالات المجتمع العربي من سياسة واجتماع وثقافة ...

خاتمة:

إنّ دعوة العروي واضحة في ضرورة طيّ الصفحة مع المرجعيات التراثية، فقراءته لها جاءت في إطار تبيان محدوديتها المنهجية والنظرية، فلا يكفينا اليوم العيش على إنجازاتنا الثقافية الماضية، فعلى الرغم من إطلاع المفكرين العرب سواء محمد عبده أو ابن خلدون أو حتى غيرهم على الفكر اليوناني وخاصة المنطق الأرسطي، إلاّ أنّ الثقافة العربية الإسلامية ليست ثقافة عقل بل هي ثقافة نص، لذلك كانت استراتيجية العروي للخروج من هذا السجّال الفكري والجدل الإيديولوجي هو تحقيق القطيعة والتزود بأطر الحداثة والدفاع عن الفكر التاريخي، فمن خلال وعي الإنسان بالتاريخ يقوى على إحداث التغيير الإيجابي في الحاضر، لأن الماضي انتهى ولن يعود.

فالمثقف العربي اليوم مسؤوليته كبيرة في العمل على تحديث العقل العربي والقيام بوضع برنامج عملي لتجسيد ذلك التحديث على مستوى الواقع العربي، لبساهم في نشر الوعي لأنّ ما نعانيه هو تأخر شامل ونقص إيديولوجي منع وجود إيديولوجيا تمكننا من فهم وتطبيق مقومات الحداثة الغربية للنهوض بالعالم العربي، فالعقل العربي عقل غير مكتمل بالقياس مع العقل الحداثي، وهكذا ندرك المسافة الكبيرة التي تفصلنا عن عالم الحداثة والتقدم، ومن هنا وجب اتخاذ القرار وتحفيز النفس والعزم على تحقيق الإصلاح، والعمل واقعيا على تحويل العقل إلى عقلانية، لتصبح بذلك ممارسة واقعية وليست مجرد نظرية نعتقد أنها محققة في مجتمعنا في حين أننا لا نستوعبها ، ومع ذلك كيف لمجتمع تراثي بامتياز كالمجتمع العربي الإسلامي أن يتجاوز ماضيه ليدرك العقل الغربي ومقوماته وهو لا يدرك حتى ذاته؟،

الهوامش:

1-عبد الله العروي، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2012، ص.24

2- المصدر نفسه، ص.60

3- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

4-كمال عبد اللطيف، من العقل إلى العقلانية في البرهنة على ضرورة القطيعة مع التراث، في محاورة فكر عبد الله العروي، جمع وترتيب: بسام الكردي، المغرب، ط1، 2000، ص 176.

5- المصدر نفسه، ص .174

6- عبد الله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2011. ص.41

7- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

8-كمال عبد اللطيف، من العقل إلى العقلانية في البرهنة على ضرورة القطيعة مع التراث، في محاورة فكر عبد الله العروي، ص .175

9- يوسف بن عدي، قراءات في التجارب العربية المعاصرة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص44-.45

10- عبد الله العروي، مفهوم العقل، ص .176

11- المصدر نفسه، ص .187

12- المصدر نفسه، ص.188

13- المصدر نفسه، ص.203

14- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

15- المصدر نفسه، ص .350
16- المصدر نفسه، ص.10
17- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
18- محمد المصباحي، جدلية العقل والمدينة في الفلسفة العربية المعاصرة، منتدى المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص284-.285
19- عبد الله العروي، مفهوم العقل، ص.11
20- محمد المصباحي، جدلية العقل والمدينة في الفلسفة العربية المعاصرة، ص .286
21- يوسف بن عدي، قراءات في التجارب العربية المعاصرة، ص .51
22- عبد الله العروي، مفهوم العقل، ص.363
23- المصدر نفسه، ص .364
24- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
25- عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2006، ص:.136
26- المصدر نفسه، ص.63
27- المصدر نفسه، ص 151.